

تفسير ابن كثير

* رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه . قاله الضحاك ، وأن يلحقه بال صالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه [عليه و] عليهم أجمعين . وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف ، عليه السلام ، قاله عند احتضاره ، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة ، رضي الله عنها; أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل يرفع أصبعه عند الموت ، ويقول : " اللهم في الرفيق الأعلى ، اللهم في الرفيق الأعلى ، اللهم في الرفيق الأعلى " . ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام والحق بال صالحين إذا حان أجله ، وانقضى عمره; لا أنه سأل ذلك منجزا ، كما يقول الداعي لغيره : " أماتك الله على الإسلام " . ويقول الداعي : " اللهم أحينا مسلمين وتوفنا

مسلمين وألحقنا بالصالحين " .ويحتمل أنه سأل ذلك منجزا ، وكان ذلك سائغا في ملتهم ،
كما قال قتادة : قوله : (توفي مسلما وألحقني بالصالحين) لما جمع الله شمله وأقر عينه
، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها ، فاشتاق إلى الصالحين قبله ، وكان ابن
عباس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف ، عليه السلام . وكذا ذكر ابن جرير
والسدي عن ابن عباس : أنه أول نبي دعا بذلك . وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة
على الإسلام . كما أن نوحا أول من قال : (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي
مؤمنا) [نوح : 28] ويحتمل أنه أول من سأل نجاز ذلك ، وهو ظاهر سياق قتادة ،
ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا . قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا إسماعيل
بن إبراهيم ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لا بد متمنيا
الموت فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي "
[ورواه البخاري ومسلم ، وعندهما : " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا
فيزداد ، وإما مسيئا فلعلة يستعقب ، ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ،

وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي " [وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان بن رفاعة ، حدثني علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكرنا ورققنا ، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء ، فقال : يا ليتني مت ! فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : " يا سعد أعندي تتمنى الموت ؟ " فردد ذلك [ثلاث] مرات ثم قال : " يا سعد ، إن كنت خلقت للجنة ، فما طال عمرك ، أو حسن من عملك ، فهو خير لك " وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس - هو سليم بن جبير - عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعون به من قبل أن يأتيه ، إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا " تفرد به أحمد . وهذا فيما إذا كان الضر خاصا به ، أما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت ، كما قال الله تعالى إخبارا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل قالوا : (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) [الأعراف : 126] وقالت مريم لما أجاها المخاض ، وهو الطلق ، إلى جذع النخلة (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا

منسيا) [مريم : 23] لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج

وقد حملت وولدت ، فيقول القائل أنى لها هذا ؟ ولهذا واجهوها أولا بأن قالوا : (يا

مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) [

مريم : 27 ، 28] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا ، وأنطق الصبي في المهد

بأنه عبد الله ورسوله ، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفي

حديث معاذ ، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي ، في قصة المنام والدعاء الذي فيه : "

وإذا أردت بقوم فتنة ، فتوفني إليك غير مفتون " . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة ،

أنا عبد العزيز بن محمد ، عن عمرو ، عن عاصم ، عن عمر بن قتادة ، عن محمود بن

لبيد ؛ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " اثنتان يكرههما ابن آدم الموت ، والموت

خير للمؤمن [من الفتنة] . ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب " . فعند حلول

الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في

آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال : اللهم ، خذني

إليك ، فقد سئمتهم وسئموني . وقال البخاري ، رحمه الله ، لما وقعت له تلك المحن

وجرى له ما جرى مع أمير خراسان : اللهم توفني إليك .وفي الحديث : " إن الرجل ليمر
بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول : يا ليتني مكانك " لما يرى من الفتن والزلازل
والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون .قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني
يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ، استغفر لهم أبوهم ، فتاب الله عليهم وعفا عنهم ،
وغفر لهم ذنوبهم . [ذكر من قال ذلك] : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسن ، حدثني حجاج ،
عن صالح المري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع
ليعقوب شمله ، وأقر عينه خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم لبعض : ألستم قد علمتم ما
صنعتم ، وما لقي منكم الشيخ ، وما لقي منكم يوسف ؟ قالوا : بلى . قال : فيغركم
عفوها عنكم ، فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ،
ويوسف إلى جنب أبيه قاعدا ، قالوا : يا أبانا ، إنا أتيناك في أمر ، لم نأتك في مثله قط ،
ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله . حتى حركوه ، والأنبياء ، عليهم السلام ، أرحم البرية ،
فقال : ما لكم يا بني ؟ قالوا : ألست قد علمت ما كان منا إليك ، وما كان منا إلى أخينا
يوسف ؟ قال : بلى . قالوا : أو لستما قد عفوتما ؟ قالوا : بلى . قالوا : فإن عفوكما لا يغني

عنا شيئاً ، إن كان الله لم يعف عنا . قال : فما تريدون يا بني ؟ قالوا : نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرت أعيننا ، واطمأنت قلوبنا ، وإلا فلا قرّة عين في الدنيا أبداً لنا . قال : فقام الشيخ فاستقبل القبلة ، وقام يوسف خلف أبيه ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين . قال : فدعا وأمن يوسف ، فلم يجب فيهم عشرين سنة - قال صالح المري يخيفهم - قال : حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل ، عليه السلام ، على يعقوب فقال : إن الله بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك ، وأنه قد عفا عما صنعوا ، وأنه قد اعتقد موثيقهم من بعدك على النبوة . هذا الأثر موقوف عن أنس ، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً . وذكر السدي : أن يعقوب ، عليه السلام ، لما حضره الموت ، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام ، فدفن عندهما ، عليهم السلام .